الرضا
في وقائع وأحداث

الرضا

في وقائع وأحداث

نقرأُ في آيات القرآن:

﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾.[1]

﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.[2]

فما صفات أولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه؛ حتَّى نرى ذلك في وقائع وأحداث ؟

إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قد أخبر عن أولئك الذين رضي عنهم ورضوا عنه؛ لتُعرَف أعمالهم وصفاتهم، وليكونوا أسوةً لغيرهم في الأخذ بالأسباب، لِطلَبِ المغفرة **والرضا** من الله.

وذلك هو الفوز العظيم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ولنقف عند ثلاثةِ مواضع مِمَّنْ أخبر الله عنهم ورضوا عنه:

* **الموضع الأول:** في سورة "المائدة" قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾.[3]

---

(1) المائدة: ١١٩.

(2) البينة: ٨.

(3) المائدة: ١١٩.

* **الموضع الثاني:** في سورة "التوبة" قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾.[1]

* **الموضع الثالث:** في سورة "البيِّنَة" قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.[2]

وإذا نحن تدبرنا هذه الآيات الثلاث، من سورة "المائدة" و"التوبة" و "البينة" استطعنا أن نعرف صفات هؤلاء الذين حَسُنَتْ عاقبتهم، ورضي الله عنهم، ونالُوا الفوزَ العظيم.

فما هي هذه الصفات التي يمكن أن تقتبس من مضمون هذه الآيات ؟

الصدق الذي لازَمَ أصحابَه، فَبَرَّ بهم في دُنياهم وأُخراهم ..

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ ﴾.

ومن المعلوم أن الصِّدْقَ يهدي أصحابَه إلى البرِّ، والبرَّ يهدي إلى الجنة، كما جاء في الحديث المتفق عليه، عن عبد الله بن مسعود - رضي

---

(1) التوبة: ١٠٠.

(2) البينة: ٧، ٨.

الله عنه ـ عن النبي ﷺ: قال:

« إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِى إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا ».(1)

ونتائجُ الصدق ليست بَارَّةً بالناس في أُخراهم فحسب، بل هي بَارَّةٌ بهم ـ أيضاً ـ في دُنياهم، فهي صفة جامعة لخيري الدنيا والآخرة.

فالذين صدقوا، وَعَلِمَ الله صدقَهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾.(2)

هؤلاء المؤمنون الصادقون في بيعتهم قد عَلِمَ الله صِدْقَ قلوبهم.

وكان ذلك في "صُلْحِ الحديبية" عندما بايعوا الرسولَ ﷺ بيعةَ صدقٍ على أن يقاتلوا قريشاً، ولا يفرُّوا.

فعلم اللهُ ما في قلوبهم من الصِّدق والوفاء.

فكانت النتائجُ عاجلةً، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانمَ كثيرةً يأخذونها. مع أنهم لم يزيدوا ـ في هذا الموطن ـ عن صِدْقِ القلوب فيما عاهدوا عليه وبايعوا من أجله.

---

(1) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب.

(2) الفتح: ١٨، ١٩.

أخرج البخاريُّ عن يَزِيدِ بْنِ أَبِى عُبَيْدٍ، عَنْ سَلَمَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: « بَايَعْتُ النَّبِيَ ﷺ ثُمَّ عَدَلْتُ إِلَى ظِلِّ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا خَفَّ النَّاسُ قَالَ: يَا ابْنَ الأَكْوَعِ، أَلاَ تُبَايِعُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: وَأَيْضًا. فَبَايَعْتُهُ الثَّانِيَةَ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا مُسْلِمٍ، عَلَى أَيِّ شَىْءٍ كُنْتُمْ تُبَايِعُونَ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ: عَلَى الْمَوْتِ ».(1)

وعَنْ جَابِرٍ ـ رضي الله عنه ـ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ».(2)

إن الذين رضي الله عنهم قد عَلِمَ منهم صِدْقَ القلوب.

﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾.

فكانت بيعةُ الرضوان يوم الحديبية فَتْحاً.

والذين حقَّقَ الله لهم وبهم الفَتْح كانوا أهلَ صِدْقٍ في جميع أمرهم، وفي مبايعتهم رسول الله ﷺ بيعةَ الرضوان.

والصدقُ يلازم صاحبَه ولا ينفَكُّ عنه سواء أخطأ الإنسانُ أو أصاب؛ فإنْ أخطَأَ استغفرَ وأناب، وإن أصابَ أَسْنَدَ الفضلَ لربِّه، ولم يسنده لنفسه.

وهذه الصفة من أجمع الصفات التي يُطْلَبُ بها النصرُ، ويُرْجَى الفوزُ، وتُنَال المغفرة.

---

(1) البخاري: كتاب الجهاد.

(2) أبو داود: كتاب السنة.

ولذلك نرى كعبَ بنَ مالك ـ وهو من الثلاثة الذين خُلِّفُوا وتاب الله عليهم ـ نراه وقد بُشِّرَ بتوبة الله عليه يقول لرسول الله ﷺ ـ فيما قال ـ:

« إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بالصِّدْقِ.

وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ.

فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ ـ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ـ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي.

مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا.

وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.[1]

فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ ـ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلاَمِ ـ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ لاَ أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا

---

(1) التوبة: ١١٧ـ ١١٩.

فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ، فَقَالَ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1] »[2].

الصدقُ نَجَاةٌ لصاحبه في دُنياه وآخرته.

وهو من مكارم الأخلاق وأخلاقُ هذا الدِّين مستمدَّةٌ من عقيدته.

وعقيدته ـ كما نعلم ـ فيها من العُمقِ والثبات والرسوخ ما يُعطي الأخلاقَ نفسَها رُوحَ الثَّبات والقوة والشمول، ويمنحها رُوحَ التجرد من المنافع، والتخلص من الرياء والكذب.

فالصدق صدقٌ في جميع الأحوال:

في النيَّة، والقول، والعمل.

مع الله، ومع النَّفْسِ، ومع الخَلْقِ، دونَ نَظَرٍ لِمَا يترتب عليه من عاجلِ منفعةٍ أو مَضَرَّةٍ؛ لأنه ـ في ذاته ـ قيمةٌ يُبتَلَى صاحبُها بما يُبْتَلَى به المؤمنون.

﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[3].

---

(1) التوبة: ٩٥، ٩٦.

(2) مسلم: كتاب التوبة.

(3) العنكبوت: ٣.

فالصدقُ مع الله يستوجبُ الإخلاصَ في عبادته، وعدم الإشراك به.

يستوجبُ معرفتَه وخشيتَه، ورجاءه ومغفرته.

وصدقُك مع نفسِك يستوجبُ ألاَّ تدعها تُرديك أو تُطغيك بطُول الأمل، واتِّباع الهوى.

قال عليُّ بن أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ:

« إنما أخشى عليكم اثنتين: طولَ الأملِ، واتِّباعِ الهوى؛ فإنَّ الأوَّلَ يُنسي الآخرةَ، والثاني يَصُدُّ عن الحقِّ ».[1]

والصدقُ مع الناس ثمرة الصدق مع الله، وحُسْنِ الاستجابة لله وللرسول، وأداء ما فرضه الدِّينُ وأوجبه، والدِّينُ النصيحة، كما جاء فيما رواه مسلمٌ عن تميم الدَّاري ـ رضي الله عنه ـ قال:

قال رسول الله ﷺ: « الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ ».[2]

والنصيحةُ كلمةٌ جامعةٌ يُعَبَّرُ بها عن إرادةِ الخير، ولا يمكن أن يُعَبَّرَ عن هذا المعنى بكلمةٍ واحدةٍ تحصرها، وتجمعُ معناها غيرُها.

وقوله ﷺ « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » يريدُ عمادَ أَمْرِ الدِّينِ إنَّمَا هُوَ النصيحة، وبها ثباتُه.

والصدقُ يستوجبُ أن يكون صاحبُه كذلك، في كُلِّ شيءٍ أمينٌ صادقٌ، لا يكذب ولا يخون.

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة: ٧/ ١٠٠.

(2) مسلم: كتاب الإيمان.

وهذا بابٌ واسعٌ يقتضي الفقه في الدِّين، والعمل به؛ حتى يكونَ صادقاً ناصحاً لله ولكتابه ولرسوله ولأَئِمَّةِ المسلمين وعامَّتهم، كما يجب أن يكون.

« فَمِن نصيحة الله ـ تعالى ـ: الإيمان به، وصحَّة الاعتقاد في وحدانيته، وتَرْك الإلحاد في صفاته، وإخلاص النيَّة في عبادته، وبَذْل الطاعة فيما أمر به ونهى عنه، وموالاة مَن أطاعه، ومعاداة مَن عَصَاه، والاعتراف بنِعَمِهِ، والشُّكْر له عليها. وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصيحة نفسه لله، والله غنيٌّ عن نُصْحِ كُلِّ ناصح ».[1]

واقتران الصدق بالنصيحة ـ التي هي الدِّين ـ يُحقق الشمول في أدائها مع أئمة المسلمين وعامتهم، بالضوابط التي قرَّرها الدِّينُ في الدعوة إلى الله، وبيَّنَتْهَا آياتُ القرآن الكريم والسُّنةُ المطهرة.

ومن هنا يعلم أن مجالاتِ الصدق أوسعُ مَدَىً من أن تكون مجرد حَدَثٍ عارض، يصدق الإنسانُ فيه ثم ينسى غيره.

مجالات الصدق في الحياة كُلِّها. سواء كان الإنسان مع نفسه، أو مع غيره.

وقِمَّةُ ذلك وأصلُه: صِدْقُ الإنسان فيما عَاهَدَ عليه ربَّه.

والقيام بذلك في طمأنينةٍ وثباتٍ، يوصله بهذا اليوم الذي ينفع الصادقين صدقُهم.

---

(1) عمدة القاري: ٣٢٢/١.

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾.[1]

تلك هي الصفة الأولى من صفات مَن رضي الله عنهم ورضوا عنه، تُقْتَبَسُ من آيةِ "المائدة".

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾[2]

أمَّا الآية الثانية من سورة "التوبة" ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾.[3]

فإنها قد أجملت وأفادت بذكْرِ مَن توفَّرت فيهم صفات مَن رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وهم الصفوةُ الذين يُقْتَدَى بهُداهم من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان.

إنهم السابقون الأوَّلون. وللسَّبْقِ إلى الخير أهلُه، وَلَهُ قَدْرُه.

ولنتذكر صفةَ الصدق التي بدأنا بها؛ فإنَّ هؤلاء الصفوة هُم أهل الصدق الذين وصفهم الله بصفاتٍ جامعةٍ جعلت منهم السابقين، لا في الزمن فحسب، بل في الزَّمَنِ، والفَضْلِ، وإيثارِ ما يبقى على ما يفنى.

فقال ـ سبحانه ـ عن المهاجرين:

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ

---

(1) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

(2) المائدة: ١١٩.

(3) التوبة: ١٠٠

ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾.[1]

وقال ـ سبحانه ـ عن الأنصار:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾.[2]

وقال ـ سبحانه ـ عَمَّن اتبعوهم بإحسان:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.[3]

إن هذا التفصيل لصفات مَن رضي الله عنهم ورضوا عنه في آيات الذِّكْرِ الحكيم دعوةٌ للناس جميعاً أن يتدبروا هذه الصفات.

فالقرآنُ قد أُنْزِلَ وحُفِظَ بِحِفْظِ الله؛ ليكونَ بلاغاً للناس ونذيراً للعالمين.

ولا يستطيع أشدُّ الناسِ مكابرةً وإعراضاً إلاَّ أن يُحْنِيَ الرَّأسَ؛ إعجاباً وتقديراً لِعِظَمِ آثارِ هذه الصفات في روابط الناس ومعاملتهم. ولا يستطيع أن يقولَ إلاَّ ما أخبر الله به عنهم.

---

(1) الحشر: ٨.

(2) الحشر: ٩.

(3) الحشر: ١٠.

﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾.[1]

فالإخلاصُ، والصدقُ، والإيمانُ، والحُبُّ، والإيثارُ، والجُودُ، والجهادُ بالأموال والأنفُس، والصبرُ، والشكرُ، والذِّكْرُ، والتوكلُ على الله وحده ـ مع الأخذ بالأسباب ـ وسلامةُ الصُّدورِ، وصفاءُ النفوسِ، وَحُبُّ الخير للناس، والدُّعاءُ، والإنابة إلى الله.

كُلُّ هذه الصفات وغيرُها من الفضائل والمكارم، تَرَاهَا عملاً في سلوكِ مَن رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وتراها في آياتٍ تُتْلَى على الناس إلى أنْ يرث الله الأرضَ ومَن عليها، بياناً وهُدَىً وموعظةً؛ ليعرف أنَّ بابَ **الرِّضا** لم يُغْلَقْ أبداً، وأن هذه صفات الدَّاخلين فيه.

فَمَن رَغِبَ ورضي فَلَهُ **الرِّضَا**، وليستمسك بما رَغِبَ فيه.

بابُ الرضا مفتوحٌ، وللداخلين فيه والقادمين إليه سِمَاتٌ وصفاتٌ لا تخفى ولا تبيد، جاءت بها التوراةُ، وجاء بها الإنجيلُ، وحُفِظَ بها القرآن.

ليعلم أن **الرِّضَا** ليس موقوفاً على ذوات، وإنما هو موقوفٌ على صفات. وللصفاتِ بقاؤُها، ولذوات المتَّصفين بها شأنُهم وقَدْرُهم في كل زمان ومكان.

وَلِمَن اتَّصَفَ بنقيضِ هذه الصفات: الحرمان من الرِّضا، وسُوءُ العاقبة والمصير.

---

(1) البينة: ٧، ٨.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾.[1]

وفي آية "البيِّنة" نرى من صفات مَن رضيَ الله عنهم ورضوا عنه أنهم ﴿ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.[2]

وفي جزائهم الذي تطيبُ به النفوس يأتي قولُ الله؛ إشارةً إلى عِظَمِ هذا الجزاء، وبُعْدِ مكانته ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.[3]

فتُعطينا مفتاحَ الرضا في كُلِّ أمرٍ وفي كُلِّ شأن.

إنَّه في قَلبِكَ، وليسَ بعيداً عنك.

إنَّه في خشيتك من ربِّك.

وهل جاءت الرُّسُلُ إلاَّ لذلك ؟!

وهل يصلح أَمْرُ الطُّغاة ـ حيث كانوا ـ إلاَّ بذلك ؟

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[4]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

---

(1) محمد: ٢٨.

(2) البينة: ٧.

(3) البينة: ٨.

(4) النازعات: ١٩.

وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.[1]

في الحديث المتفق عليه، عَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ:

« جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَنْ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالاً يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ.

فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمْ "الْقُرَّاءُ" فِيهِمْ خَالِي "حَرَامٌ".

يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ.

وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ.

وَيَحْتَطِبُونَ [2] فَيَبِيعُونَهُ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ.

فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَعَرَضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ.

فَقَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا.

قَالَ: وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا ـ خَالَ أَنَسٍ ـ مِنْ خَلْفِهِ، فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ.

فَقَالَ حَرَامٌ: فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عَنَّا »[3]

---

(1) البينة: ٧، ٨.

(2) الاحتطاب: جمع الحطب.

(3) مسلم: كتاب الإمارة.

في الحديث وَصْفٌ لحالِ هؤلاء الذين رَضُوا عن الله ورضيَ الله عنهم.

أَوَّلُ ما يُطالعنا من صفاتهم وأحوالهم:

١- يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ.

هذا ليلُهم. لَيْسَ بِلاهٍ ولا عابث، وإنما هو ليلٌ ذاكرٌ خاشع، يُقْضَى مستنيراً بآيات الله وكلماته.

ولننظر إلى نَهَارِهم؛ لنرى ما كان فيه..

٢- وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ.

هذا عَمَلٌ بَارٌّ ينتفع به المسلمون..

يشربون الماءَ، ويستعملونه في حاجاتهم.

وكأنِّي بنهارهم يُطَبِّقُ ما تدارسوه بليلِهم.

فَهُم بالليلِ يقرأون القرآنَ، ويذكرون مقاصده.

وفي النهار يتحركون بأمره، ويتقلَّبون بوَحْيه.

إنهم وَهَبُوا أنفسَهم للخير، ورأوا أنفسَهم به.

إنهم رجالٌ لم يَخْدَعُوا أنفسَهم ببريقِ الحياة.

إنهم عَرَفُوا الطريقَ، فَتَحَدَّدَ العَزْمُ والسلوك.

أدركوا أنَّ أنفسَهم لله، لا لغيره، فلم يتوزعوا، أو يتميَّعُوا، أو يترددوا في اختيار طريقِ الباقيات الصالحات.

فهذا لَيْلُهم يُضَاءُ بِنُورِ القرآن.

وهذا نَهَارُهم يُقْضَى في طَيِّبِ الأعمال.

٣- وَيَحْتَطِبُونَ، فَيَبِيعُونَهُ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ :

هنا "احتطاب" بصيغة الافتعال؛ لأنَّ تحصيل الحَطَبِ يحتاجُ إلى مزاولةِ عملٍ، وهم يُزاولون العملَ، وما يَصِلُ إلى أيديهم يبيعونه، ويشترون الطعامَ لأهل الصُّفَّةِ وللفقراء.

أَيُّ نفوسٍ هذه ؟! وأيُّ نَمَطٍ من الرجال ؟!

إنهم رجالٌ يقومُ بهم دين، وتُبَلَّغُ بهم رسالة، وتسعَدُ بهم أُمَّةٌ، وتنعَمُ بهم جَنَّة.

إنهم رجالٌ انتصروا - أَوَّلاً - على أنفسهم، فجديرٌ بهم أن ينتصروا في جميع معاركهم.

إن الإنسان لا يُخْذَلُ إلاَّ من نفسه، ولا يُذَلُّ إلاَّ من حِرْصِه.

« وإنَّك لن تنصُرَ اللهَ في معركةٍ حتَّى تنصرَه في نفسِك، بتغليبِ أمره على هواك ».

هؤلاء الكرام بَعَثَهم النبيُّ ﷺ ليدعوا إلى الإسلام، ويُعلِّموا القرآنَ.

ومِن صفاتهم وأحوالهم نُدركُ حِكْمَةَ الرسول ﷺ في اختيارهم، وأنَّهم نَمَطٌ من الناس جديرٌ أن يدعو إلى الله بأفعاله قبل أقواله.

« ومُعَلِّمُ نفسَه ومؤدِّبُها أَحَقُّ بالاحترام من مُعَلِّم الناس ومؤدبهم ».

ولكن يبدو أنهم ثمرةٌ قد طابَتْ، وأنَّ ثَمَنَهم قَد غَلا..

وأنهم أصبحوا - برِضى الله عنهم - أَهْلاً لسلعةِ الله الغالية.

إنهم قد دَعوا إلى الله بأبلغِ ما يدعو إليه داعٍ.

إنهم لم يُعَلِّموا أبناءَ جيلِهم فقط، بل عَلَّموا الأجيالَ الوافدةَ من بعدهم.

إنَّ الله قد اختارهم دُعَاةً، لا لفئةٍ محدودةٍ في زمنهم، بل جعلهم دُعاة أحياء بشهاداتهم، وقد أعلا ذِكْرَهم، وجعلهم أُسْوة لمن يأتي بعدهم.

إنهم في هذه الساعة لا يذكرون أنفسَهم، ولا يَقِفُونَ عند جراحَاتِهم.

إنهم يذكرون ربَّهم، ويتذكرونَ نَبيَّهم ﷺ.

وهم يُرْسِلون إليه؛ يُطَمئِنُونه ويُبشِّرونه.

ولكنْ.. مَن يحملُ رسالَتَهم ؟ ومَن يُبَلِّغ عنهم ؟

« الله » الذي قُتِلوا في سبيله.

إنهم لم يصلوا إلى المكان الذي أُرسِلُوا إليه، وإنما وصلوا إلى أعلى مكانٍ وأكرمه.

أيُّ مكان هذا الذي وصلوا إليه ؟

ذاك ما عَبَّر عنه خالُ أنسٍ - وهو يُطْعَنُ برُمْح - حين قال: « فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ ».

وها هيَ رسالتهم قد وصلت، وبُلِّغ الرسولُ ﷺ بها، حينما قال لأصحابه: « إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عَنَّا ».

يَا لَـهُ من بلاغ !!

فسَلامٌ على من حَمَلَ البلاغَ من رَبِّه، ومَن حُمِل إليه.

وسلامٌ على هؤلاء الصَّفوةِ الذين لم يَغِبْ عنهم أن يضمنوا رسالتهم ما يُنبئ عن سعادتهم بما وقع معهم، فقدَّموا رِضَاهُم عن الله في موطنِ البلاء، وطلبوا أن يُبَلِّغ بذلك رسول الله ﷺ.

بَلَّغَ الله عنهم، فكان إخبارُ الرسول ﷺ بأمرهم دلالة من دلالات نبوته، وإعلاماً بحقيقةِ الرضا في البأساء والضَّراء وحينَ البأس في حياة هذا الجيل، جيل القُدوة من صحابةِ رسول الله .. فرضيَ الله عنهم جميعاً وأرضَاهم.

***